الحكم

من أسماء الله الحُسنى الحكم . والحَكَم بفتح الحاء والكاف . والحَكَمُ ، والحاكم بمعنىً واحد ، إلا أنَّ فقهاء اللغة يقولون : أيَّة زيادة في المبنى ؛ لا بدَّ من أن يقابلها زيادةٌ في المعنى .

أصل الحَكَمِ المنعُ . حكمه أي منعه . والحكمةُ : هي الحديدة التي تمنع الفرس من السفاهة . هكذا جاء في معاجم اللغة . والحَكَمُ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى كما جاء في حديث رسول الله ﷺ ، ولا تنسَ أنَّ الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

أسماؤه حُسنى ، وصفاته فُضلى ، وكمال الله مُطلق ، أيُّ اسم إن بحثت عن وجوه الكمال فيه فقد أصبت ، وإن خطر ببالك غير ذلك فقد أخطأت ، قال بعض العلماء : « **الحَكَم ؛ صاحب الفصل بين الحقِّ والباطل** » .

أحياناً الباطل له جولةٌ وصولة ، ربما سمح الله له أن يعلو ، ربما أرخى الله له الحبل ، لكن إلى أمد . لأنَّه حَكَم ؛ ولا بدَّ من أن يزهق الباطل ، لأنَّ الله موجود . لو أنَّ الباطل استشرى وامتدَّ وطغى وبغى إلى أمدٍ طويل ، هذه الفكرة تتناقض مع وجود الله ، أن يستشري

الباطل ، وأن يمتدَّ ويمتدّ وأن يطغى وأن يبغي ، أن يضع كلَّ الخطط فتنجح ، هذه الحقيقة تتناقض مع وجود الله ؛ لا بدَّ من أن يظهر الله آياته ، وما أكثر الآيات ، والآيات نراها كلَّ يوم .

والله سبحانه وتعالى ، ألقى على النبيّ ﷺ هذا القرآن الكريم ، فهو آياته ، وكلامه . وخلق الكون ، والكون آياته . وأفعاله كلّها آياته . أفعاله كلُّها تدلُّ على كمالاته ، على عدالته ، على حلمه ، على رحمته ، على قدرته ، على علمه ، فلك أن تعرف الله من آياته الكونيَّة ، ولك أن تعرفه من آياته القرآنيّة ، ولك أن تعرفه من آياته التكوينيَّة .

صاحب الفصل بين الحقِّ والباطل . . أحياناً زوجان ؛ كلٌّ يدَّعي أنَّه مظلوم ، وكلُّ طرفٍ معه الحجج والبراهين والوقائع ، لكنَّ المظلوم فعلاً يوفِّقه الله ، والظالم يسحقه الله . . شريكان ؛ كلٌّ يدَّعي أنَّه على حق ، وأنَّ شريكه الآخر ظلمه ، ويأتي كل منهما بالحجج التي تؤيّد حقه ، وقد يفتري ويخترع أدلَّةً غير صحيحة ، يوهم الناس ، ولكنَّ الله هو الحكم . فالشريكان ؛ الظالم يُهلكه الله ، والمظلوم يوفِّقه الله . توفيق الله للمظلوم ؛ هو حُكْمُ الله فيه . إهلاك الظالم حُكْمُ الله فيه ، وكذلك زوجان افترقا ، توفيق أحدهما في زواجٍ آخر ، حُكْمُ الله فيه . هلاك الثاني في زواجٍ آخر ، حُكْمُ الله فيه .

إنسان يدَّعي أنَّه ورع ، وأنَّه على حق ، علامة حكم الله له أنَّه يوفِّقه ، وعلامة حكم الله على آخر مبطل أنَّه يخذله . . فالله صاحب الفصل بين الحقِّ والباطل ، بين البارِّ والفاجر .

قد يتوفّى أبٌ ويترك أولاداً ، أحد أولاده الأقوياء يأخذ المال

كلَّه ، ويحرم إخوته ، تدور الأيّام ، هؤلاء المظلومون إخوة ذاك الأخ الباغي الظالم ، يوفَّقون في أعمالهم ، وهذا الذي أخذ المال الحرام ، يُتلف الله ماله ، وأحياناً يُضطرُّ إلى أن يعمل عند أحد إخوته . . فالذي أخذ المال كلَّه وحرم إخوته منه ، يخذله الله ، ويتلف ماله ، فيُضطرَّ إلى أن يعمل عند إخوته الذين حرمهم من إرث أبيهم ، فالله هو الحَكَمُ .

وهناك حكم نهائي يوم القيامة ، لكنّ الحكم في الدنيا هو نصر الله أو خِذلانه ، توفيقه أو عدم توفيقه ، تيسيره أو تعسيره ، وما أكثر الشواهد ، حياتنا زاخرةٌ بهذه الشواهد . . الذي كسب مالاً حلالاً قليلاً ، يبارك الله له فيه . والذي كسب مالاً حراماً كثيراً ، يتلِفُ الله ماله . الذي برَّ والديه يهبه الله أولاداً أبراراً . والذي عقَّ والديه يهبه الله أولاداً عاقّين ؛ هذا حكم الله له .

فالله سبحانه وتعالى هو الحكم ، صاحب الفصل بين الحقِّ والباطل ، صاحب الفصل بين البارِّ والفاجر ، المجازي كلَّ نفسٍ بما عملت ، وهناك آيات كثيرةٌ جداً تؤكِّد هذا المعنى . . فقد قال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] .

وقد قال تعالى :

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة : ١٨] .

وقال تعالى :

﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم : ٣٥ـ٣٦] .

مثلاً شابٌّ مؤمنٌ مستقيمٌ ، ويخاف الله ويرجو رحمته ، ويتحرّى

الحلال ، ويبحث عن زوجةٍ صالحة ، لا يكذب ، تراه ضابطاً لجوارحه ، ضابطاً لدخله وإنفاقه ، وشابٌّ آخر متفلِّتٌ لا عقيدة تردع ، ولا دين يمنع ، ولا استقامة ، ولا عبادة ، ولا حلال ولا حرام ، يفعل ما يشاء . فإذا تساوى هذان الشابّان في التوفيق وفي النصر والتأييد ، وفي التمتُّع في الحياة الدنيا . إن تساويا ولم يكن هناك فرقٌ بينهما ، هذه الفكرة تتناقض مع وجود الله ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ .

إنسان دخله حلال ؛ أيعقل أن يُعامل كما يُعامل صاحب الدخل الحرام ؟! إنسان ضبط سلوك أهله وأولاده وبناته ؛ أيعقل أن يُعامل من قبلهم كما يُعامل إنسان تفلَّت من أوامر الشرع ، وأطلق لزوجته ولبناته العنان ؟

هذا مستحيل فالحَكَمُ توفيقه حُكْمٌ ، تيسيره حكم ، تعسيره حكم ، إلقاء الأمن في قلب المؤمن حُكم . إلقاء الخوف والفزع في قلب المشرك حكم . أن يُقدِّر للإنسان حياةَ ضنك ؛ معيشةً ضنكاً حكم ، أن يقدِّر للإنسان حياةً طيِّبة حكم ، أن ينصرك حكم ، أن يخذلك حكم ، إن دعوته فاستجاب لك فدعاؤك صادق ومخلص ، وإن لم يستجب فهناك سببٌ حال دون أن يُستجاب لك حكم .

وما أكثر . . . . ما كنت أكثر المثل تلو المثل : أب عنده ولدان ، ولد بار ، والثاني عاق ، فإذا دخل البار رحَّب به وسأله عن أحواله كأن يقول : أين أنت وكيف حالك ؟ وكيف أولادك ؟ وكيف أهلك ؟ هل تناولت طعام الغذاء ؟ أما إذا دخل العاق يتمنّى ألا يدخل عليه ، فانكماش الأب من ولده العاق حكم ، وترحيبه بولده البار حكم ،

التوفيق حكم والتعسير حكم ، إلقاء الأمن في قلب المؤمن حكم ، وإلقاء الفزع في قلب المشرك حكم .

لكن هذا المعنى أوسع مدى وأرحب بينَ مخلوقاتِ الله سبحانه . . ولربما استعصى على المرء أن يصدق أنَّ شاةً قرناء لو نطحت شاةً أُخرى جلحاء لاقتصَّ منها ، أبداً ، الحكم بين مخلوقاته لا بين بني البشر فحسب ، ولا بين الإنس والجنِّ فحسب ، بل بين كلِّ مخلوقاته أياً كانوا ، اقرأ إن شئت قول الله تعالى :

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾

[آل عمران : ١٧٩]

مؤمن مخلص ، مؤمن مقصِّر ، هل هما عند الله سيّان ؟ لا . . لابدَّ من أن يُميّز الله بينهما ، يضع الأول في ظرف فيتألَّق ، يضع الثاني في ظرف فيسقط ، امتحنهما وفرَّق بينهما .

المميِّز بين الشقيِّ والسعيد بالعقاب والثواب ، « **ما من مخلوقٍ يعتصم به من دون خلقه ؛ يعرف ذلك من نيَّته ، فتكيده أهل السموات والأرض ، إلا جعل له من بين ذلك مخرجاً ـ فأن يجعل الله له من بين ذلك مخرجاً حكم ـ وما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دونه يعرف ذلك من نيَّته إلا جعل الأرض هويّاً تحت قدميه ، وقطَّع أسباب السماء بين يديه** » ، أن يجعل الأرض هويّاً تحت قدميه حكم نعم ، هو حكم .

قال أحد العلماء : « **الحَكَم ؛ هو الحاكم المحكَّم ، والقاضي المسلَّم ، لا رادَّ لقضائه ، ولا معقِّب لحكمه** » .

في الدنيا قد يحكم القاضي ، ولكنَّ محكمة النقض تنقُض حكمه ، وقد يحكم رئيس محكمة النقض ، ولا يُصدَّق حكمُه ،

لكنَّ الله سبحانه وتعالى لا معقِّبَ لحكمه ، وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً فلا مردَّ له ، لا تعقب لحكمه .

كنت قد ذكرت ، ولعلي ذكرته في كتاباتي وأحاديثي أكثر من مرة : أنَّك لو التقيت رسولَ الله ﷺ وهو سيِّد الخلق وحبيب الحقّ ، وعرضت عليه مشكلتك ، وكانت خصومةً بينك وبين أحد الناس ، وانتزعت من فمه الشريف حكماً لمصلحتك ، ولم تكن محقّاً لم تنجُ من عذاب الله ، فمن هو الحَكَم إذاً ؟ هو الله .

قال العلماء : « **الحكم ؛ هو الذي لا يقع في وعده ريب** » ، إذا وعد وفىٰ . . لأنَّ ربنا عزَّ وجلَّ يطمئننا ، إذا حدَّثنا عن المستقبل ، جاء الفعل ماضياً ففي قوله تعالى :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١] .

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ . . لقد جاء . . ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ ، معنى ذلك أنَّه لم يأتِ ، لكن ليقين وقوعه أتى ، وقال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي ﴾ [المائدة : ١١٦] .

لم يقل الله بعد . . : فالحكم إذاً ؛ هو الذي لا يقع في وعده ريب ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ ، ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ ، ولا في فعله عيب . . أكرر : لا في وعده ريب ، ولا في فعله عيب .

« **والحكم ؛ هو الذي حكم على القلوب بالرِّضا والقناعة** » . . هذه الدنيا بمنزلة مرحلة إعداديَّة بالنسبة للحياةِ الأبديَّة ، والمؤمن عرف أنَّها حياةٌ دنيا ، حياة إعداد ، حياة تمهيد ، لذلك رضي عن الله ، رضي عن حياته ، عن عقله ، عن إمكاناته ، عن دخله ، عن بيته ، عن زوجه ، عن أولاده ، عن بناته ، فهو راضٍ . . من الذي ألقى في قلبه

الرضا ؟ الله سبحانه وتعالى ، لقربه من الله ألقى في قلبه السكينة والرضا .

قال : « **الحكَم ؛ هو الذي حكم على القلوب بالرضا والقناعة ، وعلى النفوس بالانقياد والطاعة** » .

من بعض معاني هذا الاسم العظيم : الحكم . . النّافذ حكمه ، فالإنسان أحياناً يصدر تعليمات فلا تنفَّذ ، أو تنفَّذ في مركز المدينة ، وفي أطرافها لا تنفَّذ ، ما أكثر التعليمات التي تصدر والتي لا تنفَّذ . فبالطبع ليس كلُّ إنسان حكمه نافذ . ولو أنَّ الإنسان أراد أن ينفذ حكمه ، لاحتاج إلى جهاز كبير جداً ، يعني الساعة الثالثة في منتصف الليل لا يوجد شرطي مرور ، فإذا كانت الإشارة حمراء يمكنه أن يتجاوزها ويتخطّاها ، وبذلك نكون قد خرقنا حكم قانون السير ، فمن غير المعقول وضع شرطي عند كلِّ إشارة ليلاً ونهاراً . إذاً الحكم لم يُنَفَّذْ ، فالإنسان أضعف من أن يُنفِّذ حكمه ، أما الله سبحانه وتعالى ، فالحكم النافذ حكمه ، ولا يحول دون تنفيذه حائل .

لذلك عظمة الدين . . أنَّ أساسه الوازع الداخلي ، لأنَّ المؤمن يعلم أنَّ الله معه ويراقبه ، وفي القصَّة المشهورة عن سيِّدنا عبد الله بن عمر والراعي . . قال له : بعني هذه الشاة ، قال : ليست لي ، قال : خذ ثمنها ، قال : ليست لي . . والله إنني في أشدِّ الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدَّقني ، فإني عنده صادق أمين ؛ لكن أين الله ؟

وإني أعتقد أنَّه ما من نظامٍ وضعيٍّ ، إلا ويعتمد على الرادع لا على الوازع . والردع مرتبط بأشخاص ، أو بأجهزة ، أو بآلات ،

يعني من الممكن أنه إذا انقطعت الكهرباء في إحدى المدن التي توصف بالرقي ، والمجتمع الحضاري ، فمن الممكن أن ترتكب في ليلةٍ واحدة مئتا ألف سرقة ، لقد انقطعت الكهرباء في إحدى مدن الغرب ولمدّة ساعاتٍ معدودة وارتكبت مئتا ألف سرقة في تلك الليلة ، فلا يوجد الوازع ، ولكن هناك الرادع . والرادع أساسه المراقبة ، فلمّا انقطعت الكهرباء أُلغي الرادع فتفلّتت النفوس ، أمّا عظمة هذا الدين فهي أنَّه مبني على الوازع .

أرسل لي أخٌ أراد ألا أعرفه ، رسالةً قال لي فيها : والله لقد أرجعت لورثةٍ عشرين مليون ليرة ، وهم لا يعلمون عنها شيئاً ، وقد مات أبوهم فجأةً وأبوهم من النوع الذي لا يُعلِم عن أمواله إطلاقاً ، وقد رددت المبلغ لهم كاملاً . ما الذي جعله يردُّ هذا المبلغ ؟ الوازع أم الرادع ؟ فالرادع غير موجودٍ ، فليس هناك إيصال بالمبلغ ، وليس مديناً بشيءٍ أمامهم إطلاقاً ، ولا هناك علمٌ لأحد بالمبلغ ، ولا عند أحدٍ خبرٌ أبداً ، لكنَّ الوازع الديني حمله على أن يردَّ هذا المبلغ .

تجد عند المؤمنين مواقف لا تصدَّق ، لكنها معقولةٌ جداً ؛ لأنَّ المؤمن يراقب الله عزَّ وجلَّ . إنسان متزوج شعرت امرأته كأنَّه متزوِّج من أُخرى ، هكذا شعرت وبعد أن تقصَّت فإذا توقُّعها في محلِّه ، ولم تفاتحه في هذا الأمر ، ثم توفي هذا الزوج ؛ فمن شدَّة ورعها أرسلت حصَّة ضَرَّتها بعد الوفاة ، ومن شدَّة ورع الثانية قالت : والله طلَّقني قبل أن يموت . ولم تأخذ شيئاً ، هذا هو الإسلام .

الحكَم ؛ هو النافذ حكمه ، الذي لا رادَّ لقضائه ، ولا معقِّب لحكمه ، والذي يفصل بين الحقِّ والباطل .

ولدى متابعة شرح هذا الاسم الحكم تثور لدينا نقطةٌ مهمّة جداً . . فلو أنَّ أباً ارتكب ابنه غلطاً ما ، فضربه ولم ينطق ببنت شفة ، فالضرب لم يُفِدْ . . فمن لوازم إقامة العدل ، ومن لوازم التربية الصحيحة ، أن يُبيِّن الأب لابنه لماذا ضربه ، ماذا فعل ؟ ، فعل كذا وكذا فاستحقَّ العقاب ، لكن قال العلماء : الحكم ؛ هو الذي يبيِّن لكلِّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ أو شر ، كيف يبيِّن ؟ . . أحياناً الإنسان يُلقى في رُوعه ، فعندنا وحي للأنبياء ، وهناك وحي إلهام فقد قال تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص : ٧] .

وهناك وحي غريزة ، فقد قال تعالى :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل : ٦٨] .

وأيضاً هناك وحي أمر لقوله تعالى :

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة : ٥] .

أما الوحي إلى النبيّ ؛ فهذا وحي الرسالة ، وليس لنا علاقة به في بحثنا هذا ، لكن الإنسان تأتيه أحياناً مصيبة ، ويلقى في قلبه أنَّها من أجل كذا فيعرف حقيقة ما يجري له ولعله يعتبر ! .

فهناك إنسان خالف مخالفة بسيطة ، فبحسب ثقافته الدينيّة ، وأقوال أساتذته أنَّه لا بدَّ له من مصيبة فبدأ ينتظر ، فصحته سليمة ، ولا شيء حدث لأولاده وزوجته ، فلم يصبه شيء على الرغم من مخالفته البسيطة ، ففي الصلاة ناجى ربَّه فقال : يا ربّ ، لقد عصيتك فلم تعاقبني . قال : وقع في قلبه ، أُلقي في قلبه ؛ أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدرِ ، ألم أحرمك لذَّة مناجاتي ؟

وهناك أخ من إخواننا لديه معملٌ بسيطٌ للملابس ، زاره شخص من المسجد ليشتري بعض القطع من هذه الألبسة ، والمعمل يبيع بالجملة ، فهذا الطلب رآه مهيناً ، فلا يبيع أربع قطع ، فقال له : أنا لا أبيع بالمفرَّق . يقول صاحب هذا المعمل : والله ثلاثون يوماً متواليةً ، لم يدخل معملي إنسانٌ ، ثم وقع في قلبه لماذا لم تبع فلاناً ؟

فمعنى الحَكَم : الله عزَّ وجلَّ مربٌّ ، يعاقب ، ويُلقي في روع الإنسان لماذا فعل معك كذا وكذا .

أحد الأشخاص تأخر في أداء زكاة ماله ولم يؤدّها ، فسيّارته أُصيبت بحادث وهذا شيء طبيعي . أما أن تأتي أجرة التصليح مع الطلاء مع قطع الغيار مطابقة لمبلغ الزكاة بدقّة على مستوى الليرة الواحدة ، وهو نفسه مبلغ التصليح ، فهذا تعليم من الله . . بخلت بزكاة مالك فدفعت المال بلا طائل ، فالله عزَّ وجلَّ حكم يعاقب ، ويُلقي في رُوع الإنسان أنَّه فعل كذا وكذا وهذا جزاء وناله .

إن عملت عملاً طيِّباً ، يُلقي في روعك أنَّه راضٍ عنك ، وإن عملت لا سمح الله عملاً سيِّئاً ، يريك مناماً مخيفاً أحياناً ، أو انقباضاً فتشعر بضيق ، والدنيا كلُّها لا تسعه ، فضيق القلب ، أو انشراح الصدر هو من أساليب ربنا التربويّة ، فهو يربّي ، فإن كان عملك طيِّباً تجدك منطلقاً ، والناس قد يكونون في همّ وغم ، وأنت مستثنى وليس لك علاقة بشيء ، وإذا لم يكن عملك طيباً فهناك انقباضٌ ومرارة وضيق .

أما من أجمل الآيات دلالةً والمتعلِّقة بهذا الاسم فهي قوله تعالى :

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ [الأنعام : ١١٤] .

أحياناً يكون مع شخص وثائق . . فيقول لك : إن لديه ومعه وثائق ، والقاضي يعرفه ، ويترافع عني المحامي فلان ، وما أدراك ما فلان ، وهو مطمئن ، فهل اتّخذ هذا الإنسان الله حكماً ؟ لا . . لقد اتخذ القاضي حكماً ، فقد يفاجأ بحكم غيرمتوقَّع ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ .

فالإنسان ليس له الحق في أن يحتكم إلى غير الله ، فإذا احتكم إلى غير الله فقد حَكَّم في أموره مَنْ ليس حاكماً ، فأحياناً الذي اعتمدت عليه يخيِّب ظنَّك ، وقد قال تعالى :

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[يونس : ١٠٩] .

لذلك أجمل دعاء أن تقول إذا ألمَّ بك مكروه ، أو نزلت بك ظُلامة : حسبي الله ونعم الوكيل .

فالله ينصرك ، والله عزَّ وجلَّ من أسمائه الحق . . فما معنى الحق ؟ معنى الحق أنّه لا بدَّ من أن يظهر الحقّ ، لا بدَّ من أن يظهر الحقّ لأنّه هو الحق ، فلا تخشَ أحداً ، فالعاقبة للمتقين ، والأيام تدور ولا تستقر إلا على إنصاف المظلوم ، وعلى إهلاك الظالم ، وعلى رفعة المؤمن ، وعلى إذلال الكافر ، وهذا التاريخ أمامكم .

أصحاب النبيّ ـ رضوان الله عليهم ـ الذين التفّوا حوله ، وعزَّروه ونصروه ، ودافعوا عنه ، وآمنوا به ، وأحبّوه ، وافتدوه بأرواحهم ، أين هم الآن ؟ في أعلى عليين ، والذين حاربوه وخذلوه وأخرجوه ، وقاتلوه وكذَّبوه أين هم ؟ في أسفل السافلين ، هذا هو التاريخ .

سيِّدنا عمر بن عبد العزيز . . كيف سمعته ؟ كالنجم في السماء ،

كلّ شيء له نهاية ، والعاقبة للمتقين ، وقد قال تعالى :

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

قال تعالى ﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ ، معنى ذلك ؛ أنَّ هناك وقتاً أمضيته فيه ظلمٌ ويكون الإنسان مظلوماً . فالسيِّدة عائشة ألم تُظلم ؟ فلماذا أخَّر الله الوحي شهراً ؟ من أجل أن تُكشف النفوس . أخَّر براءتها شهراً بأكمله ، المؤمنون ظنّوا بأنفسهم خيراً ، والمنافقون روَّجوا هذا الخبر وأشاعوه وأرجفوا في المدينة ، الله عزَّ وجلَّ كشف النفوس على حقيقتها . لو أنَّ هذا الخبر أُشيع في المدينة ، وفي اليوم التالي جاءت البراءة ، فبذلك يكون أربع أخماس الناس لم يمتحنوا ، لكن لا ، والخبر كان ينتشر ويزداد انتشاراً ، والتهمة كبيرة جداً فهي تهمة الفاحشة! وهي زوجة رسول الله ﷺ وابنة الصدّيق ، الطاهرة العفيفة والبريئة ، ولكن الخبر شاع ، والنبي ﷺ مقيَّد ليس معه دليل إثبات ولا دليل نفي ، وزوجته ، وهي أقرب الناس إليه ، وهي عِرضه ، وما زال الخبر ينتشر ويشيع ، فانظروا إلى دقَّة قول الله ﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ حتى حرف غاية . . أي أنّ هناك وقتاً فقد تكون مظلوماً ، وقد يكون المبطل هو الأقوى ، وكلمته هي النافذة ، وأنت لا أحد يسمع لك ، والناس كلُّهم ضدّك ، ممكن ذلك فعليك أن تصبر ﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ، وبعد ثلاثين يوماً نزلت براءتُها . . وفصل الله القضية واتضحت الحقيقة .

والآية تقول :

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين : ٧ـ ٨] .

كأنه من سياسة الله عزَّ وجلَّ مع عباده ، أو بعبارة أدّق : من سننه

مع خلقه ؛ أنَّه يُرخي الحبل للكل ، بقي بإمكانك أن تفعل ما تشاء ، أن تعصي الله ، وأن تقول كلاماً غير معقول ، وأن تأتي بالإفك والإثم ، وأنت قوي وصحيح ، والفحص الدموي مئة بالمئة ، مالك يزداد ، قوَّتك تزداد ، ولكن هذا الشيء لا يستمر إلى ما لا نهاية ، بل استمراره إلى حين ، فالحبل مرخى إلى أجل ، ففي أيَّة لحظة يُشدُّ الحبل ؛ فإذا أنت في قبضة الله .

والله هذه القصَّة تتكرر كلّ يوم . . . ومن الممكن لإنسان أن يؤذي الناس ، ويكون شديد الذكاء ، ويحتال عليهم إلى حين ، ثم يقع في شرِّ عمله ، ثم يفضحه الله ، فدائماً وأبداً ؛ الطائع لله هو الفائز .

هناك مقولة نصها : « **كفاك على عدوِّك نصراً ؛ أنَّه في معصية الله** » ، لو كنت أضعف منه وهو الأقوى ، لو كان هو الأغنى ، وأنت الأفقر . لو كان هو الأذكى ، وأنت الأقل ذكاءً . فالعاقبة للمستقيم .

دققوا في هاتين الكلمتين من الآية : ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ﴾أي اصبر إلى أن ، فحتى حرف غاية . . ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ حتى يتصرف ، حتى يقصم ظهرالظالم ، وينصر المؤمن ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ .

سيِّدنا يوسف . . ماذا حكم عليه إخوته ؟ أن يقتلوه ، ألقوه في غيابة الجب ليموت . . بعد حين ماذا كانت النتيجة ؟ دخلوا عليه فإذا هو عزيز مصر ، مقامه كبيرٌ جداً ، فمصر كانت أكبر مملكة وهو رئيس وزرائها فقالوا له :

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف : ٩٠] .

وقال أبوه سيِّدنا يعقوب :

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف : ٦٧].

لذلك : إذا أردت أن تكون أقوى الناس ، فتوكَّل على الله . وإذا أردت أن تكون أغنى الناس ، فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك . وإذا أردت أن تكون أكرم الناس ، فاتقِ الله .

وإليك بعض حُكم الله في حقِّ العباد :

الآن بعض أهم أحكام الله . . . قال العلماء : حُكم الله ؛ أنَّه ليس للإنسان إلا ما سعى . . الله عزَّ وجلَّ ليس عنده تمنِّيات ، ولا محاباة ، ولا تمييز فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وقال تعالى :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩-٤٠] .

هذا من حكم الله . . ومن حكم الله ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٣-١٤] .

وكذلك قول الله تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ ﴾

[النحل : ٩٧]

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ . . حكم الله . . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ، وقال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ . . حكم الله . . ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ ، وقال تعالى :

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ . حكم الله . . ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ ، من لم يتبع هدى الله عزَّ وجلَّ ، حُكْمُ اللهِ ؛ يَضلُ عقلهُ ، وتشقى نفسهُ .

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ . . حكم الله . . ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ . . هذا أول حكم : من لم يتبع هدى الله عزَّ وجلَّ ، يندم على ما فات ويخشى من ما هو آت .

هذا هو القرآن بين أيديكم ، أي أنَّ الله عزَّ وجلَّ أعطانا أحكاماً جاهزة ، وقال تعالى :

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ . . حكم ، وقال تعالى :

﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ . . حكم ، وقال تعالى :

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ . . حكم .

ما قولكم أن نقرأ القرآن ونتبع أحكام الله في خلقه ، كلها قوانين فقد قال تعالى :

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس : ٣٣] .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر : ٣] .

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف : ٥٢] .

أيْ : أيّة خيانةٍ على وجه الأرض ؛ لا يمكن إلا أن تُكْشَفَ ، هذا حكم الله ، أيَّة مخادعة تعود على صاحبها ؛ فقد قال تعالى :

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء : ١٤٢] .

وأيُّ مكرٍ يعود على صاحبه فقد قال تعالى :

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر : ٤٣] .

هذه كلُّها أحكام الله عزَّ وجلَّ.. إن الله مع الصابرين ، إن الله مع المتقين ، إن الله مع الصادقين ، فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

حكم الله على المعتدين ؛ أنَّه لا يستجيب لهم لأنه لا يحبهمهذا حكم الله عزَّ وجلَّ.. فقد قال تعالى : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ .

قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

هذا هو حكم الله ، فالمؤمن.. مؤمن ومذعن ، قضيَّة أعطى الله فيها حكماً ، إن وضعتَ هذه القضيَّة على بساط البحث ، فلست مؤمناً.. ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ﴾ . هذا حكم الله عزَّ وجلَّ وكفى نعم أكرر وأقول : إن وضعتها على بساط البحث فلست مؤمناً .

عن الرَّبِيع بْن نَافِعٍ عَنْ يَزِيدَ يَعْنِي ابْنَ الْمِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ شُرَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ هَانِىء أَنَّهُ لَمَّا وَفَدَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَعَ قَوْمِهِ سَمِعَهُمْ يَكْنُونَهُ بِأَبِي الْحَكَمِ ، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « **إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ** » ؟ فَقَالَ : إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِيَ كِلا الْفَرِيقَيْنِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَا أَحْسَنَ هَذَا فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ** » ؟ قَالَ : لِي شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ اللهِ ، قَالَ : « **فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ** » ؟ قُلْتُ : شُرَيْحٌ ، قَالَ : « **فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ** » . [سنن أبي داود] .

هذا من لطف النبيِّ ﷺ فالله هو الحكَم ، وأنت لست حكَماً .

لِمَ تُكنى أبا الحكم ؟ لأنَّ قومي يحتكمون إلي وحكمي منصف ، فقال له الرسول ﷺ : ما أحسن هذا . . جيِّد . وعرف منه أسماء أولاده واسم أكبرهم شريح فسماه أبا شريح . . هذا من أدب النبيِّ ﷺ مع ربِّه . فهذا الاسم لله عزَّ وجلَّ ، هو الحكَم ، أما الإنسان فإذا صار حكماً أي صار قاضياً واستلم القضاء فهو أحد ثلاثة .

عن خَلَف بْن خَلِيفَةَ حَدَّثَنَا أَبُو هَاشِمٍ قَالَ : لَوْلا حَدِيثُ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « **الْقُضَاةُ ثَلاثَةٌ اثْنَانِ فِي النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ ، رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ جَارَ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ** » ، لولا أن النبي قال ذلك لَقُلْنَا : إِنَّ الْقَاضِيَ إِذَا اجْتَهَدَ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ . [سنن أبي داود] .

أي قاضيان إلى النار . . إنسان حكم بلا علم ، وإنسان حكم على علم ظلماً ، كلاهما في النار . . والذي عرف الحقَّ فحكم به فهو في الجنَّة .

أحدهم علَّق على هذا الموضوع قائلاً : اليوم : قاضيان في النار ، وقاضٍ في جهنَّم . أي لم يبقَ أحد من القضاة إلا ودخل النار إلا من رحم ربك ، على كلٍّ القضاء شيء مخيف ، لأنَّ الظلم ظُلماتٌ يوم القيامة .

اسم الله الحكَم ، يقتضينا أن نحتكم إلى الله ، فهذا أول موقف . . أما إذا حُكِّمنا . . فعلينا أن نحكم بالعدل ، يجب أن نحتكم إلى الله

لأنَّه يعلم كلَّ شيء ، يعلم السرَّ وأخفى ، ويقتضينا إذا حُكِّمنا في قضيَّة ألا ننحاز مع أحد .

. . أحد القضاة وكان معروفاً في مدينته أنَّه يُحِبُّ الرُّطب في بواكيرها ، طُرِق بابه ، فتح الغلام الباب ، رأى رجلاً معه طبقاً من رطب ـ وهذا شيء نفيس جداً في بواكيره ، وهو غالٍ كثيراً ، ومن نوع جيِّد ـ فرجع إلى القاضي قال له : يا سيِّدي بالباب رجل ومعه طبقُ رُطب . فقال له : صفه لي . قال : صفته كيت وكيت . فعرف أنَّه أحد المتخاصمين عنده ، فقال : رُدَّ الطبق إليه . بعد حين قابل الخليفة وطلب إعفاءه من منصب القضاء . قال : ولِمَ وأنت الورع النزيه العالم الفقيه المجتهد ؟ قال : لقد جاءَني قبل أيَّام رجل أهداني طبقَ رطبٍ ، وفي اليوم التالي جاء مع خصمه ليحتكما إلي ، تمنيَّتُ أن يكون الحقُّ مع صاحب الطبق الذي قدَّمه إلي ، هذا مع أنِّي رددته فكيف لو قبلته ؟ . . . كان القضاة هكذا يُحاسبون أنفسهم .

أنت حَكَم بين ابنتك وصهرك ، وتكلَّمت البنت وفق هواها ، فزمجرتَ وأرعدت وغضبت وقلت : هذا الصهر ليس عنده أدب ، وسوف أقوم بتربيته وحرمانه من زوجته ستة أشهر . . فهل سمعتَ منه قبل أن تحكم .

قال أحدهم لأحد الشيوخ : يا سيدي قد لطمني أحدهم كفاً ، فرددته عليه ، أَعَليَّ شيء ؟ قال له الشيخ : لا ليس عليك شيء . ثمَّ ظهر أنَّ الذي ضربه هو أبوه . فالفتوى على قدر الوصف .

فالقضاء دقيق . . سمعت من ابنتك حديثاً وتكلَّمت على زوجها في حديثها وأطالت ، ألا يقتضي الحكم العدل أن تسمع من زوجها ، ماذا

فعلت به ؟ سمعت من والدتك ، فاسمع من زوجتك ـ رأساً طلقها دون سماعها ـ فأنت أحياناً تكون حكماً بين زوجتك وأمك ، وبين ابنتك وصهرك ، هؤلاء أقرب الناس إليك ، أو تكون رئيساً لدائرة وعندك موظفان يتشاجران دوماً ، فإذا سمعت من واحدٍ منهم ، فاستمع للآخر ، ولا تعاقب على الفور بعدما سمعت من الأوّل ، فماذا تعلَّمنا من سيِّدنا سليمان ؟ فقد قال تعالى :

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل : ٢٧] .

فإذا كنت حكماً يجب أن تحكم بالعدل ، وإن احتكمت فلا تحتكم إلا لله ، فكيف تقول لله : يا ربِّ أنا حكَّمتك ؟ كيف تحتكم لله ؟ ثم لا تنصاع للحق . الاحتكام لله يعني أن تنصاع لكتابه ، والاحتكام لرسوله يعني أن تخضع لِلسُّنَّةِ ، إما لكتاب الله ، وإما لسنَّة رسول الله ﷺ فقد قال تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء : ٦٥] .

وعند النزاع في قضية ما ، . . . قال تعالى :

﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ . . فردُّوه إلى الله ، أي إلى قرآنه ، وإلى رسوله أي سنَّته . فإذا كنت مؤمناً ، فتردُّ الأمر المتنازع فيه إلى الله ورسوله .

وبعد ، فإن التجربة والاطلاع على أحوال الناس أظهرت أنّه إذا كانت قضيَّته تُحلُّ بالقضاء المدني ، يقول لك أحدهم : نحن في بلد فيه قانون وقضاء ؛ فيذهب إلى المحكمة . وإذا كانت القضيَّة لا تحل في القضاء المدني ، ويعلم أنّها تحل عند العلماء ويذهب إليهم ويقول

لك : أنا أريد حكم الشرع . فلماذا تريد أن تحتكم مرةً للشرع ، ومرَّة لِلقانون ؟ إذا كنت مؤمناً صادقاً ، تحتكم إلى الله دائماً ، إلى كتاب الله وإلى سنَّة رسوله ﷺ . واعلم أن الله سبحانه قال : ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون . فالزم كتاب الله وسنة نبيِّهِ .

* * *